المجلد السادس والثلاثون

١٩٨٠

هَلْ كَانَ تموز في عقائد السومريين والأكديين إله الخصوبة أو إله الموت

نائل حنون
ماجستير في الآثار القديمة

المقدمة :

اعرف انه تكاد تبدو في هذا التساؤل غرابة ، فما تعودنا الحديث عن «دموزي» (او «تموز» بصيغته السامية) الا بصفته الهاً للخصوبة ، وما تعودنا ان يرتبط ذكره مرة بألوهية الموت ، وانما عرفناه من خلال ما كتب عنه قبلاً بأنه فريسة للموت فقط ، وكان يغلبنا ظن منبعث من عقلانية معاصرة بأن لا فريسة امتلكت يوماً زمام امر امتحنت به . تلك غرابة في الموضوع وثمة تساؤل قد يبديه المرء حين يجد ان مدار البحث لا يغور في قضية ، لم يكتب عن «تموز» حتىٰ اليوم الا من خلال تفاصيلها ، ولم يرد ذكره الا مقترناً بها ، تلك هي قضية موته وبعثه في كل عام ، فذلك هو ما تواتر عليه الباحثون وذلك هو ما عرفناه عنه ولكني اليوم اسلك منهجاً جديداً في دراسة طبيعة هذا الاله في محاولة لتجنب ما سار عليه غيري ، ومبدؤه الشك بالآراء التي لم يسندها الدليل ومن ثم رفضها ، وعماده الأحاطة بكل ما يتصل بالموضوع من نصوص مسمارية ، مستخلصاً منها كل ما يمكنني استخلاصه من ادلة تفيد في توضيح جوانبه المختلفة دون تحميل تلك النصوص اكثر مما تحتمله محتوياتها ، وفي الجوانب التي يعز فيها الدليل الواضح المستمد من النصوص المسمارية احدد الثغرات موفياً حاجتها للأدلة مستفيداً مما يفصح عنه الترابط المنطقي للأحداث متخذاً من ذلك سبيلاً للوصول الى الحقائق العامة عن الموضوع ؟

والآن ارىٰ لزاماً عليَّ ان اتحدث عن الأسباب التي حدت بي الى الشك بحقيقة دور الاله «تموز» وتساؤلي عما اذا كان الهاً للخصوبة فعلاً او انه احد آلهة الموت في العراق القديم ، واوضح ايضاً السبب الذي جعلني اقصر موضوع هذا البحث على تحديد طبيعة الاله «تموز» تاركاً مسألة موته وبعثه الى بحث اخر .

ان بداية اهتمامي بموضوع الاله «تموز» تعود الى الفترة التي كنت اعكف فيها على تحضير رسالتي للماجستير والتي كان موضوعها «عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة» ، حيث كان الفصل الأول منها يدور موضوعه حول تلك القسمة الأبدية التي وضعها سكان العراق القدماء للخلود والموت بين الآلهة والبشر ، وكان يتوجب عليَّ آنذاك دراسة ما ورد من اشارات في النصوص المسمارية حول مقتل بعض الآلهة وتعليل تلك الاشارات مع تبيان أثرها على مبدأ خلود الآلهة ، وبالطبع كانت مسألة موت الاله «تموز» ابرز الحالات الواجب دراستها ، وكنت في بداية الأمر مقتنعاً بالفكرة السائدة التي تقول بأن الاله «تموز» كان يتعرض سنوياً للموت مع ذبول الخضرة خلال فصل الصيف ويقوم ثانية في الربيع حيث تزدهر الطبيعة وتزداد

خصوبتها بقيامته ، وكانت مدة بقائه في العالم الأسفل (عالم الأموات) محددة بستة اشهر يقوم بعدها لتنزل اخته الالهة «گشتن ـ آنّا (Gestin-anna) فتمضي الستة اشهر الباقية من العام في العالم الاسفل بدلاً عن اخيها ، ولكنني نبذت هذا الاعتقاد بعد ان وجدت نفسي بمواجهة عدة ادلة تنفي هذا الشكل لعبادة الالهين «تموز» واخته «گشتن ـ آنّا» ، وقد ادرجت تلك الادلة في رسالتي مع ابداء رأيي في الموضوع كله ، وواجهت معارضة شديدة اراها للاسف قد خرجت عن نطاق المناقشة العلمية في حين بقيت الادلة التي قدمتها كما هي من غير ان يتناولها النقاش ، ومنذ ذلك الحين وانا اتساءل عن السبب الكامن وراء هذا الاختلاف حول مسألة موت الاله «تموز» وبعثه ، حتى اقتنعت بأنه يرجع الى ان معظم الباحثين الذين درسوا تلك المسألة لم يبدوا عمقاً بدراسة شخصية الاله «تموز» وتحديد دوره الكامل في العقائد السومرية والاكدية واستجلاء اسس عبادته ؛ اذ انه ليس في الأمكان مناقشة مسألة موت الاله «تموز» وبعثه الا على ضوء عدد كافٍ وواضح من الأدلة والحجج المستندة على نتائج الدراسة الشاملة لشخصيته واسس عبادته ، وهو ما سنحاوله في هذا البحث الذي نعتبر النتائج المتمخضة عنه بداية حقيقية للدراسة المقبلة التي يدور موضوعها حول موت الاله «تموز» ومسألة بعثه من العالم الأسفل .

وهكذا نرى ان المطلوب قبل كل شيء تحديد الدور الحقيقي للأله «دموزي» (تموز) في العقائد السومرية والاكدية وتوضيح مسؤولياته ووظائفه فيها ودراسة مراحل تطور عبادته خلال الفترات المختلفة لحضارة وادي الرافدين القديمة . اما المنهج الذي سنتبعه هنا فيبتدىء بدراسة الآراء القائلة بان «تموز» هو اله الخصوبة في العراق القديم وتمحيص الادلة التي قدمها اصحاب تلك الآراء لتأييد ذلك وبالتالي بيان موقفنا منها ، ثم نحدد اله الخصوبة الرئيس والالهة المساعدة له في ضوء ما نملكه من ادلة وردت في النصوص المسمارية ونوضح بعد ذلك علاقة الاله «تموز» باولئك الالهة ودوره الكامل بين سائر الهة العراق القديم ومن ثم نتطرق الى قصة زواجه من الآلهة «إنانا» (عشتار) والمغزى من ذلك الزواج والنتائج التي ادى اليها .

هل كان «دموزي» (تموز) الهاً للخصوبة ؟

لقد ذهب العديد من الباحثين الى الاعتقاد بشكل او بآخر بأن «تموز» كان الهاً للخصوبة في عقائد سكان العراق القدماء ، فالأستاذ «ساگز» (H. W. Saggs) مثلاً افترض بأنه كان بصورة عامة اله الخصوبة الميت[1].

وذهب الاستاذ الراحل «ياكبسن» (Th. Jacobsen) الى القول بأن الآله «تموز» كان تجسيداً للقوة المسببة للتكاثر وانتاج الحليب[2].

اما الاستاذ «صموئيل نوح كريمر» (S. N. Kramer) فقد اعتبره الاله الراعي الذي لا يمكن ان تتم ولادة القطعان دون حضوره[3].

وهناك من الباحثين من جعل الاله «تموز» اله الخصوبة على وجه الأطلاق والمسؤول عن النبات والماشية كما ذهب الاستاذ الدكتور فاضل عبدالواحد [عشتار ومأساة تموز ، بغداد ، ١٩٧٣) راجع الصفحات : ٢١ ، ٢٣ ، ٥٣ ـ ٥٤ ، ١٢٩ ، ١٦٧ ، ١٨٣ ـ ١٨٤] ، وبالطبع هناك آراء أخرىٰ عديدة بصدد الموضوع الا انها لم تخرج عن هذا النطاق وليس فيها جديد يضاف الى ما ذكرنا ؟

لقد حاول بعض الباحثين القائلين بأن «دموزي» (تموز) كان إله الخصوبة في العراق القديم استنباط الدليل على صحة آرائهم من احد الالقاب التي عرف بها الاله «تموز» في بعض النصوص المسمارية ، ذلك هو لقب «الثور» او «الثور الوحشي» [د . فاضل عبدالواحد ، عشتار ومأساة تموز ، ص ٢٣] ، غير اننا يجب ان نرفض هذا الدليل لسببين واضحين هما :

اولاً : ان الاله «دموزي» لم يكن الوحيد الذي اقترن اسمه بهذا اللقب عند سكان العراق القدماء ، فقد لقبوا به ايضاً آلهة أخرىٰ هي :

١ ـ اله السماء « Anu » وقد وصف في الاسطورة السومرية المعروفة باسم «انكي وتنظيم الكون» بأنه «الثور الوحشي» العظيم اذ يرد فيها على لسان الاله «انكي» (أيا) : «أنا البذرة المخصبة ، انجبني الثور الوحشي العظيم ، انا الابن البكر للاله آنو»[4] كما ان الاله «انكي» نفسه يشبه بالثور في هذه الاسطورة وذلك في معرض وصف

مضاجعته لنهر دجلة : «نهض بأبهة مثل ثور هائج .. فاستسلمت دجلة له (كما لو انها استسلمت) لثور هائج»[٩] .

٢ ـ الاله الشمس «اوتو» Utu الذي لقب في اسطورة «انكي وتنظيم الكون» بلقب الثور حيث يرد في الاسطورة عنه بأنه : «البطل ، الثور الذي مطلعه من (غابة) «خاشر» (Khashr) وزئيره مثل الاسد «اوتو» الباسل الذي يقف بثبات ويستعرض قوته بجلال»[١٠] .

٣ ـ الاله القمر «سين» وقد وردت الاشارة اليه في احد نصوص الأمير السومري «ايْ ـ اناتم» بأنه : «سين الثور الفتي المفعم بالحيوية للاله انليل»[١١].

ونضيف الى هذه الآلهة «گلگامش» الذي لقب بالثور ايضاً حيث يخاطبه العفريت «خواوا» في النص السومري المعروف باسم «گلگامش وارض الأحياء» بأنه : «الثور المهتاج ، الثابت في المعركة»[١٢].

كما انه وصف في الملحمة السامية بأنه «الثور الوحشي الجبار» [اللوح الاول ـ العمود الثاني : ٢٠] ؟

ثانياً : والسبب الثاني الذي يجعلنا نرفض الرأي القائل بأن الاله «دموزي» كان الهاً للخصوبة بدليل انه حمل لقب «الثور» الذي يعتقد بأنه كان يرمز للخصوبة ، فهو ان الثور في العصور التاريخية في العراق القديم لم يكن رمزاً للخصوبة وانما كان مجرد رمز للبأس والقوة العضلية التي هي اقرب الى التدمير منها الى الخصب ، كما هو واضح في «ملحمة گلگامش» حين تطلب «عشتار» من الٰه السماء «آنو» ان يخلق لها ثوراً مقدساً ليقتل «گلگامش» بسبب اهانته لها ، ولكن الاله «آنو» رفض ان يستجيب لطلبها بسبب علمه لما سوف يسببه هذا الثور من مجاعة تستمر سبع سنين[١٣]، الا انه عدل عن رفضه حين اكدت له الالهة «عشتار» بانها قد خزنت ما يكفي من الغلال والعلف لهذه السنين العجاف ، وعندما تمكن «گلگامش» و «انكيدو» من قتل الثور السماوي زال خطر المجاعة عن اهل «اوروك» ؟

واضافة الى هذا لم يكن اعتبار الثور رمزاً للقحط والمجاعة مقتصراً على النصوص المكتوبة وانما وجد تعبير له حتىٰ في الفن كما ذهب اليه الاستاذ هنري فرانكفورت[١٤] فقد وجدت بعض الأختام الاسطوانية التي نقشت عليها رسوم توضح بأن الثور يرمز الى الجفاف باعتباره مشكلة كونية وليس مجرد سلاح استخدم في الخلاف بين «عشتار» وگلگامش[١٥].

ويظهر على احد تلك الأختام اله يقوم بقتل الثور الذي يظهر خلفه في الطرف الآخر اله ثان يقف على تنين مجنح ويمسك بيده صولجاناً وسوطاً جلدياً ، وقد ظهرت في وسط المشهد الهة تستنزل المطر من السماء بيديها المرفوعتين في حين ان المطر بدأ فعلاً بالهطول[١٦].

وهناك مشهد على ختم اخر يصور عملية قتل الثور ايضاً من قبل اله يحمل القوس والسهم[١٧] ونذكر اخيراً ملاحظة مهمة وهي ان الثور كرمز في الفن كان خاصاً بالاله «ادد» الذي صور في بعض الاحيان وهو يقف عليه ويمسك بيده فأساً[١٨].

وهكذا نرى ان اطلاق لقب الثور او الثور الوحشي على الاله «تموز» لا يمكن ان يعد دليلاً على انه كان اله الخصوبة ، فهو لقب لم يكن مقتصراً عليه من جهة ولم يكن بحد ذاته مقترناً بالخصوبة من جهة أخرى ؟

ان اغلب الباحثين الذين اشرنا لآرائهم قبل قليل تكونت عندهم قناعات خاصة بصحة ما يعتقدون به اعتماداً على ما يستدلون به من حقيقة كون الاله «دموزي» (تموز) زوجاً للالهة «اناتا» (عشتار) ، ولما كان الاعتقاد الشائع بين معظم الباحثين ان هذه الالهة هي نفسها الآلهة الأم في العراق القديم ، فقد جُعل الترابط المنطقي بين هاتين المسألتين طريقاً للانتهاء الى ان «تموز» هو اله الخصوبة بدليل انه زوج الالهة الأم ، ومن الواضح ان هذا الدليل الذي لم تسبق مناقشته بني على اساس الاعتقاد بأن «عشتار» هي الالهة الأم ، اننا بالطبع لا نختلف مع الرأي القائل بأن الآلهة الأم يجب ان تتزوج من اله الخصوبة ، اذ ان تزاوجهما يرمز الى اتحاد العنصر المؤنث في الطبيعة مع العنصر المذكر ، وهو اتحاد لا بد منه من اجل ضمان القدرات المنتجة والخصوبة والانجاب حيث لا يمكن لأحد هذين العنصرين ان ينجز تلك الفعاليات بمفرده ما لم يتكامل بالاتحاد مع العنصر الاخر ، وبما ان الالهة الأم تجسد العنصر المؤنث في الطبيعة واله الخصوبة يجسد العنصر المذكر فقد اصبح من البديهي ان يتزوجا تجسيداً لاتحاد عنصري الطبيعة لحفظ قدرتها المنتجة غير ان النقطة التي نتوقف لمناقشتها هنا هي بخصوص ذلك الترابط المنطقي الذي قاد الى اعتبار «تموز» الهاً للخصوبة ، لانها

الاساس الذي بني عليه هذا الاستنتاج وهو الاساس المتمثل بالاعتقاد بأن «عشتار» هي الالهة الأم ، فلو كان هذا الاعتقاد صحيحاً لكان من الطبيعي ان يعتبر «تموز» اله الخصوبة ، وذلك وفق تتابع يمكننا ان نوضحه بالتخطيط الآتي :

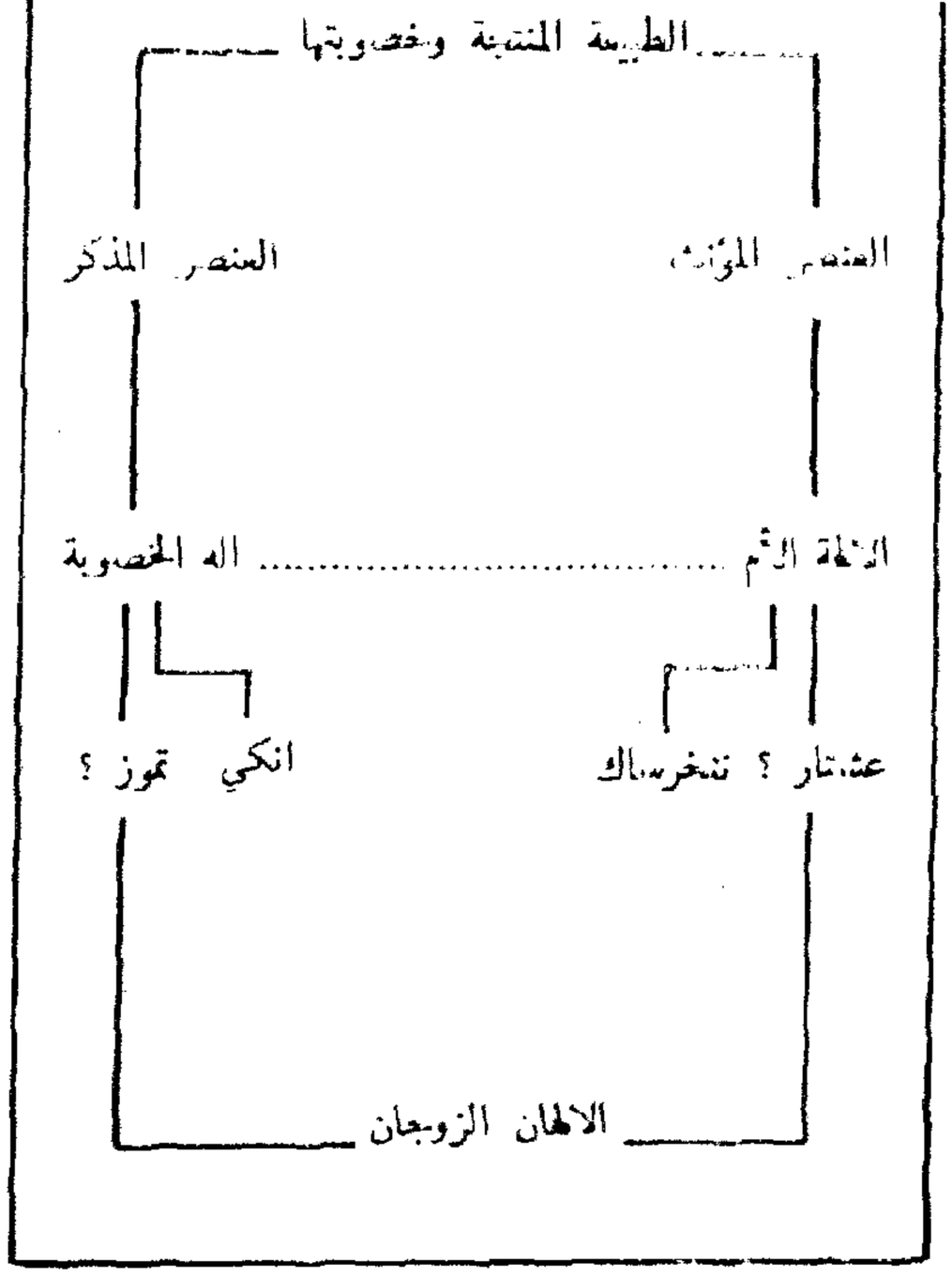

شكل رقم (١) ثنائي الالهين الزوجين : اله الخصوبة والالهة الام .

هذا هو الرأي السائد ، ولكننا اذا عرفنا ان «عشتار» لم تكن الالهة الام فمن الواجب علينا ان نرفض الرأي المبني على هذا الاعتقاد الخاطيء والذي جعل من «تموز» الهاً للخصوبة في عقائد سكان العراق القدماء ، وبالفعل فأنني ارفض الرأي القائل بأن «عشتار» هي الالهة الام في العراق القديم ، وقد اوردت رأيي هذا في بحث نشر [المجلد ٣٤ من مجلة سومر][٨] يدور موضوعه حول عبادة الالهة الام وعلاقتها بالالهة «انانّا» (عشتار) في النصوص المسمارية ، وانتهيت فيه الى ان هذه الألهة (عشتار) لم تكن الالهة الأم ، وان دورها في الديانة العراقية القديمة اقتصر على كونها الهة للحب والعلاقات الجنسية والاشراف على بعض شؤون المرأة مثل الغزل ونسج الاقمشة وانتقاء الأزياء ، كما انها كانت تعتبر تجسيداً للمرأة في ثلاث مراحل من حياتها هي المراهقة والزواج والترمل ، اما الالهة الأم فقد كانت الهة اخرىٰ لا علاقة لها «بعشتار» واقصد بها الالهة «ننخرساگ» Ninkhursag التي عرفت بالقاب متعددة مثل «ماخ» او «نماخ» «ننتو» ، «آرورو» ، و «مامي» او «ماما» ، وقد وضحت في ذلك البحث ان هذه الالهة كانت ذات مكانة خاصة في مجمع الآلهة وانها كانت الالهة الانثىٰ الوحيدة بين الآلهة الاربع الرئيسة او الخالقة : «آنو» Anu, «انليل» Enlil ، «انكي» Enki او «أيا» Ea و «ننخرساگ» ، كما انها هي التي قامت بخلق البشر وانجاب عدد من الآلهة وفق ما ورد في عدد من الاساطير السومرية والاكدية ، ومن الواضح جداً انه كانت هناك علاقة وثيقة تربط ما بين هذه الآلهة وبين الأله «انكي» (أيا) الذي اشترك معها في خلق البشر كما يتضح من بعض الاساطير العراقية القديمة ، وحتىٰ انهما اشتركا معاً في تجسيد الارض ، فالالهة «ننخرساگ» تمثل الارض الأم المعطاء ، في حين ان «انكي» يمثل الارض حينما تكون منبعاً للمياه[١٥] ؟

ويؤكد هذا الاقتران بين مسؤوليتيهما الزواج الذي حدث بينهما ، حيث تروي احدىٰ الأساطير السومرية ، التي تجري احداثها في الفردوس الالهي السومري «دلمون» (البحرين حالياً) ، بأن بأن الاله «انكي» تقدم بطلب يد الالهة «ننخرساگ» التي وافقت بعد ان ابدت امتناعاً في اول الأمر ، وكان ثمرة ذلك الزواج ابنتهما الالهة «ننسار» Ninsar التي ترمز للنبات ، الا ان الاله «انكي» يهجر زوجته قبل ان تلد بطريقة يشبهها الاستاذ «ياكبسن» بانسحاب مياه الفيضان عن الارض قبل ظهور الخضرة[١٦] .

وعلى ضوء هذا فاننا نستطيع ان نصحح التخطيط الذي وضعناه عن تجسيد اتحاد العنصر المذكر والمؤنث في الطبيعة بزواج الالهة الام واله الخصوبة بأن نستبدل اسم «عشتار» بالالهة «ننخرساگ» و «تموز» بالاله «انكي» وهكذا فأن الترابط المنطقي يقتضي ان يكون الأخير هو اله الخصوبة .

على اننا يجب ان لا نكتفي بهذا الدليل ، وانما نبحث عن سند له في النصوص المسمارية ومجمل عقائد سكان العراق القدماء من اجل ان تكتمل الصورة امامنا ، ومن

اجل ان لا تحمل اراؤنا طابع الارتجال ، فلا نحن في عجالة من امرنا ولا الموضوع مستنفذ المناقشة ، وحسبنا ان نواصل تتبع كل الجوانب فيه ونقول هذا ما توصلنا اليه يسند بعضه بعضاً ، فليس من الموضوعية بشيء ان نبسط الأمور. ونجنبها ـ عجزاً او كسلاً ـ ما لزم لتبيان صحتها من ادلة ، فلنبحث في النصوص المسمارية ناشدين ما يؤكد توجهنا نحو الصواب في قولنا بأن «انكي» هو اله الخصوبة ، ولنستمد من تلك النصوص ما يوضح لنا كيفية ادارة ذاك الاله لمسؤولياته التي هي اخطر ما يواجهه الانسان بعد التكوين والخلق . وبدءاً ينبغي ان ندرس بامعان مكانة الاله «انكي» بين الآلهة الرئيسة او الخالقة الاربع (آنو ، انليل ، انكي ، وننخرساگ) التي تأتي على رأس مجمع آلهة العراق القديم ، فنحن بعد ان وضحنا قيل قليل علاقة الاله «انكي» بالآلهة الأم «ننخرساگ» نأتي الآن على توضيح علاقته بالألهين الآخرين «آنو» اله السماء و «انليل» اله الهواء ، اما الاول فهو في منأى عن الأحداث ومكانته كانت مرتفعة وازدادت ارتفاعاً حتىٰ قربت من درجة التلاشي والبعد عن التأثير في مقومات الحياة الكونية واليومية واحداثها ، فهو على وجه العموم اله السماء الساكنة ، البعيد ببعدها ، وبالتالي فليس ثمة داع نتوقعه لوجود علاقة مؤثرة بينه وبين الاله «انكي» ، وبأستثناء «آنو» يكون «انليل» هو الرئيس الفعلي لمجمع الآلهة وهو كبيرهم واهمهم ويأتي ترتيبه قبل الالهين «انكي» و «ننخرساگ» ، والذي يهمنا هو من تحديد العلاقة بين «انليل» و «انكي» هو معرفة سلطات ومسؤوليات كل منهما ، تلك المسؤوليات التي تبدو بشكل عام متوزعة بينهما بتوافق يستلزم بعض التفصيل ؟

ان الذي نعرفه عن «انليل» انه كان الاله الاكثر اهمية من بين سائر الآلهة في العراق القديم ، له دور كبير في الشعائر والاساطير والنصوص الدينية التي كان يصور من خلالها بأنه صاحب الفضل الاول في خلق وتوجيه اكثر الظواهر الكونية خطورة في الانتاج ، وهو الذي خطط لانتاج البذور والنباتات والاشجار من الارض ، وحقق الازدهار والرخاء للبلاد وصمم الفأس والمحراث ليستخدمها الأنسان[٣٢] .

وقد ورد في احدىٰ الترانيم بأنه لولا الاله «انليل» لما شيدت الزرائب وما اقيمت الحظائر او طفحت الانهار بفيضها ، وحتىٰ لما امكن للاسماك ان تضع بيوضها او تبني الطيور اعشاشها او تمطر السماء ، وهو الذي نمت بفضله النباتات والاعشاب وانتجت الغلة واعطت الاشجار ثمارها[٣٣] ، وينبغي ان نلفت النظر الى ان هذا الدور للاله «انليل» لم يكن يعني انجازه الفعلي لكل ما نسب اليه وانما كان المقصود منه كما يقول الاستاذ كريمر[٣٤] بانه لم يقم الا بتقرير ذلك ووضع الخطط العامة له اما التفاصيل الفعلية وانجازها فقد كانت مسؤولية الاله «انكي» الحكيم البارع الذي نفذ كل تلك المقررات بالطريقة التي وصفتها الاسطورة السومرية «انكي وتنظيم الكون» والتي ورد فيها ان الاله «انكي» قدر مصائر بلاد سومر كلها وبارك ما دب عليها من اسراب وقطعان وانعم على مدنها بالرخاء وعلى المناطق الصديقة مثل «ملوخا» و «دلمون» (البحرين حالياً) بالاشجار والقصب والثيران والطيور والذهب والقصدير والبرونز وافقر البلدان المعادية مثل «عيلام» و «مرخاشي» (Markhashi) ومنح الماشية هدية لقوم الـ «مارتو» البدو ثم تحول لينجز العديد من الاعمال المهمة مثل تمكين خصوبة الارض وزيادة قدرتها على الانتاج ووفر لها المياه العذبة وسوىٰ ذلك من متطلبات الخصوبة[٣٥] ولعل اخطر ما تتعرض اليه هذه الاسطورة يتمثل في قيام الاله «انكي» بتوزيع المسؤوليات على الآله بشكل ينسجم مع ما نعرفه عنهم وعن واجباتهم من النصوص الاخرىٰ ، ونخص بالذكر هنا تلك المسؤوليات التي تتعلق بشؤون الخصوبة والانتاج ، والتي نلاحظ في توزيعها امراً مهماً جداً ان عناصرها لم تحصر كلها بيد الاله «انكي» المسؤول الأول عنها وانما قسمت بين عدد من الآلهة يشرف كل واحد منهم اشرافاً مباشراً على عنصر من عناصرها ، وذلك على الشكل الآتي :

١ ـ نهرا دجلة والفرات وما يتصل بهما من ماء عذب لابد منه في أية عملية انتاجية في الأرض جعلهما «انكي» بعهدة الأله «انبيلولو» Enbilulu ونشير هنا الى ان اسم هذا الآله استخدم ايضاً كلقب لكل من الالهين «مردوخ» و «أدد»[٣٦] .

٢ ـ مياه الأمطار العذبة وسحاباتها والرياح التي تجليها ، قام «انكي» بتسليم مسؤولية الأشراف عليها الى الاله «يشكر» ؟

٣ ـ اختار الاله «انكي» الالهة «اشنان» (Ashnan) لتكون

مسؤولة عن الحقول والغلال وبيادرها المكدسة ؟

٤ ـ وهناك الاله «سموگان» Sumugan الذي اختاره «انكي» ليكون مسؤولاً عن الجبال وما ينتج فيها من نباتات وماشية ، والجدير بالذكر هنا ان هذا الاله قد وصف في النصوص المسمارية بأنه المعجل بالخضرة وانه مكثر القطعان[٣٢] .

٥ ـ ونضيف استناداً الى نص سومري آخر ، يدخل ضمن ادب المناظرة ـ بأن هناك الهة اخرىٰ يمكن ضمها الى اولئك الآلهة وكانت مسؤولة عن الماشية والاغنام وحظائرها ومنتوجاتها وهي الآلهة «لخار» (Lakhar) [٣٣] .

٦ ـ في ما يخص الحقول والغلال التي جعلت الهتها «اشنان» والماشية وحظائرها التي جعلت الهتها «لخار» ، نجد ان هاتين الالهتين اللتين كانتا تنفذان ارادة الاله «انكي» بمسؤوليتيها تجسدان القوى المنتجة الكامنة في الحقول والحظائر ، تلك القوى الكونية التي تضمن استمرار قدراتها ، ولما كانت رعاية تلك الحقول والحظائر تحتاج ، بالاضافة الى القوى التي تضمنها وتدير شؤونها ، الىٰ وجود قوىٰ مساعدة عاملة فيها ضمن الاطار اليومي الضيق الذي لا يمتد الى ما وراء افق الظواهر الحياتية فقد اصبح من الطبيعي ان ينزل اليها الهان يتفاعلان مع ما تجسده تلك القوىٰ وينوبان عنها في الكدح اليومي ، ولذا فقد اختار الاله «انكي» الاله «انكيمدو» (Enkimdu) ليكون الهاً ـ فلاحاً وسلمه المحراث والفدان والثور بعد ان هيأ له كل شيء في الحقل كما تذكر الاسطورة اذ انه فتح القنوات وجعل الغلال تنمو في الحقل ، كما انه اختار في نفس الوقت الاله «دموزي» ليكون الهاً ـ راعياً يشرف على الحظائر التي اقامها الاله «انكي» نفسه ، وليرعى القطعان بعد ان وفر الاله «انكي» السمن والحليب الجيدين فيها وهيأ لها المراعي كما ورد في نفس الاسطورة ، ومن كل ذلك اصبح بأمكاننا القول بأن الالهين «انكيمدو» و «دموزي» لم يكن اي منهما هو الذي هيأ الحقول وغطاها بالغلال او اقام الحظائر ووفر في قطعانها الانتاج الغزير ، كما انهما لم يكونا كفيلين باستمرار القدرة على ذلك كله ، وانما كان يقوم بهذين الدورين الخطيرين في الحقول والحظائر كل من الالهتين «اشنان» و «لخار» اللتين كانتا تقومان بدوريهما بمساهمة قوى اخرىٰ تتجسد بالالهين «انبيلولو» و «يشكر» بالدرجة الاولىٰ ، ووراء كل هؤلاء يقف اله الخصوبة الرئيس «انكي» ممثلاً لمجموع الآلهة الاربع الرئيسة الخالقة ، اما الاله «انكيمدو» و «دموزي» فلم يكونا اكثر من الهين عاملين لا يجسدان قوى من الطبيعة ولكنهما ينضويان تحت الضمانات التي تمثلها الآلهة المجسدة للقوى الكبرىٰ ، واننا بالتالي لا يمكن لنا ان نتوقع من اختفائهما او موتهما اثر خطير على حالة الحقول وغلاتها او على الحظائر وقطعانها لأن هذا الاثر لا يحصل الا اذا تعرضت القوىٰ الرئيسة ـ التي حددناها قبل قليل ـ المتعهدة بذلك الى مثل تلك المخاطر بصورة مباشرة ، وبهذا فنحن نختلف مع الاستاذ «كريمر» في رأيه القائل بأن موت الاله «دموزي» يجب ان يؤثر على الحياة في الحظيرة وقطعان الماشية واننا يجب ان نتوقع بالمناظرة مع ذلك اكتشاف اسطورة سومرية في المستقبل تتضمن موت «انكيمدو» لتبرير ذبول الخضار خلال فصل الصيف الحار نظراً لأن الاخير كان مكلفاً واجب الخصوبة وحياة النبات وفق رأي الاستاذ كريمر[٣٤] ، ونرىٰ انه حريٌ بنا الانتباه الى مسألة جوهرية في الموضوع وهي ان موت اي من الالهين المذكورين لا يمكن ان يؤثر في الطبيعة بهذا الشكل ، اذ ان الاله «دموزي» لم يكن هو الذي اقام الحظائر ووفر فيها المنتوج وانما كان الاله «انكي» هو الذي فعل ذلك ، كما انه لم يكن مكلفاً بضمان خصوبة الانتاج فيها وحفظ غزارتها وانما تلك هي مسؤولية الآلهة «لخار» اما «انكيمدو» فلم يكن المعتقد انه الاله الذي هيأ الحقول وشق فيها القنوات وانما تم ذلك بفعل الاله «انكي» كما انه لم يكن مسؤولاً عن ضمان خصوبتها وانتاج اكداس الغلال منها وانما كانت هذه مسؤولية الالهة «اشنان» . والان وبعد هذه التوضيحات اصبح بأمكاننا ان نضع تخطيطاً يوضح مسؤوليات الآلهة في ما يخص شؤون الخصوبة بدءاً من الآلهة الاربع الرئيسة ، مع التركيز على دور الاله «انكي» والآلهة المساعدة له بالشكل الآتي :

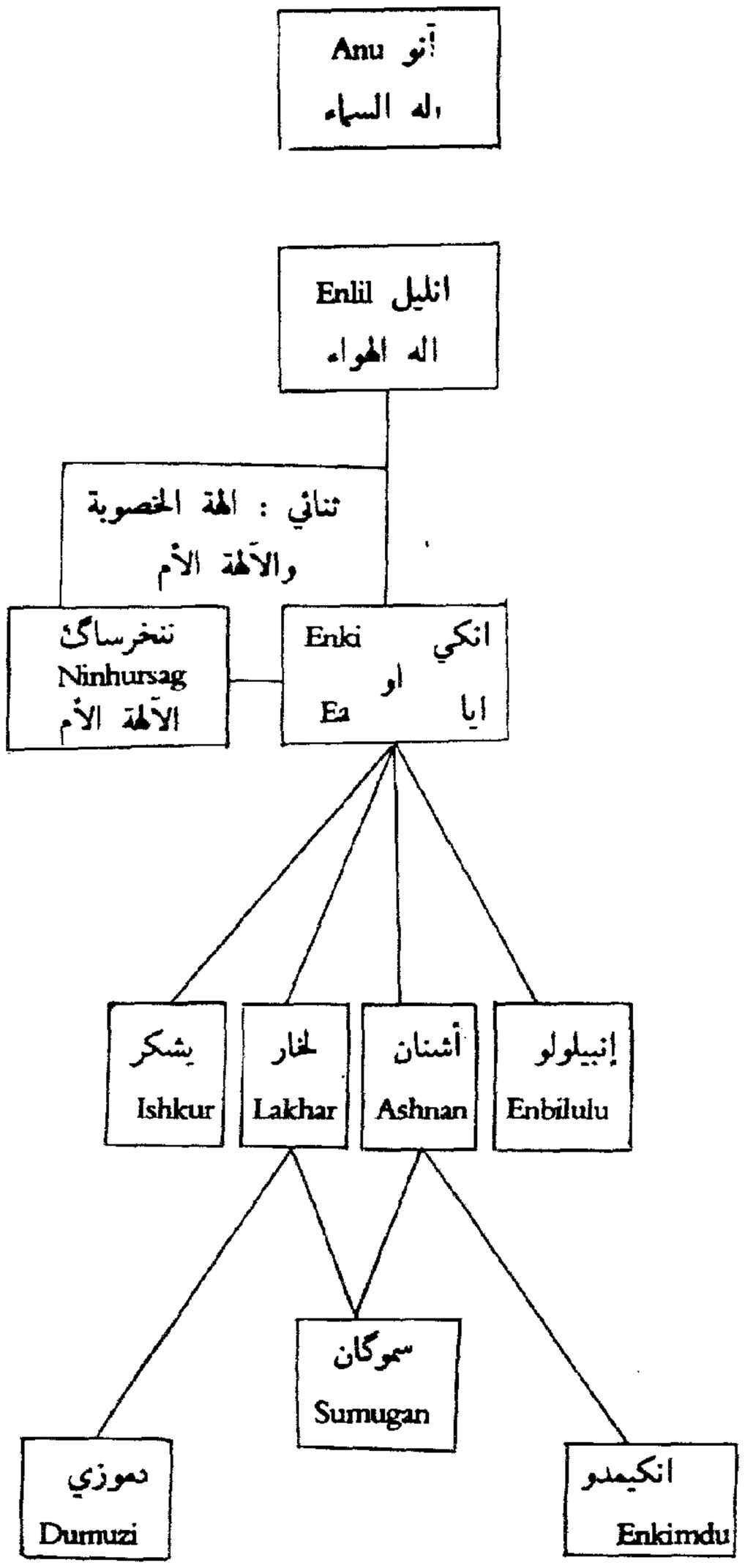

انبيلولو : دجلة والفرات وروافدهما
أشنان : الحقول والغلة وبيادر الحبوب .
بشكر : الامطار والغيوم والرياح التي تجلبها .
لخار : الاغنام والحظائر ومنتوجاتها
سموكان : خصوبة الجبال .
انكيمدو : رعاية الحقول (الاله الفلاح)
دموزي : الرعي وتنظيم الحظائر (الاله الراعي)

شكل رقم (٢) : تخطيط يوضح توزيع مسؤوليات الخصوبة بين الآلهة وعلاقة تلك الآلهة بعضها بالبعض الآخر .

ان هذا التخطيط يوضح لنا ثلاثة أمور مهمة هي :

اولاً :

ان مسؤولية الخصوبة في عقائد حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة لم تكن مقتصرة على اله واحد فقط ، اذ لم يكن ذلك مستساغاً بسبب الخطر الكبير الذي يمكن ان تتعرض له قوىٰ الخصوبة في الطبيعة مما يؤدي بالتالي الى تهديد لوجود سائر المخلوقات الحية على الارض فيما لو احاق الخطر بالاله الوحيد المسؤول عنها ، وهناك بالطبع الكثير من المخاطر التي نعرف من النصوص المسمارية انها كانت تحيق بالآلهة ، ومن تلك المخاطر الحروب والنزاعات فيما بينها على سبيل المثال ، وكان من الطبيعي ان يفكر سكان العراق القدماء بأن حصر قوىٰ الخصب في كل الطبيعة بيد اله واحد امر يفوق امكانية اي اله من آلهتهم . فخصوبة الطبيعة مسؤولية كبيرة ومتعددة الجوانب ولا يمكن توقع نتاجها الوفير الا بتفاعل عدة آلهة يجسد كل واحد منها قوة او عنصر من عناصر الخصوبة والانتاج الطبيعيين ويعود امرهم جميعاً الى اله رئيس يشرف عليهم ويوزع المسؤوليات بينهم ويوجههم ويكون قريناً كفوّا للالهة الام وذلك هو «انكي» ؟

ثانياً :

وهناك ظاهرة بارزة في التخطيط الذي وضعناه ينبغي بنا التوقف عندها قليلاً تلك هي عدم وجود علاقة وثيقة للألهة الام «ننخرساگ» بشؤون الخصوبة التي يشرف عليها الاله «انكي» ، ونحن نرجع السبب في ذلك الى ان تطور الافكار الخاصة بالخصوبة عند سكان العراق القدماء ادىٰ الى ان تنفصل مسؤوليات الالهة الأم عن اله الخصوبة ، فاصبحت الالهة الأم تشرف على شؤون الخلق والتوالد عند البشر وحتىٰ الآلهة ، واضحت من بعد انجازها لعمليات الخلق «سيدة الولادة» Nin-tu(d) كما نعتت في النصوص المسمارية ، اما اله الخصوبة فقد استمر كما وضحنا قبل قليل في الاشراف على شؤون خصوبة الطبيعة ووفرة انتاجها وغزارة نباتاتها وتكاثر حيواناتها ، ونرىٰ في هذا الانفصال واقعية فذة ، اذ ان اختلاف خصوبة الطبيعة وتغيرها وما يطرأ على القوى المحركة او الممكنة لها لا يمكن ان يؤثر على توالد البشر التي هي كما نعرف عملية تجري بمعزل عن خصب

الطبيعة ، ولا تخضع لمواسمها ، ونتيجة لذلك اصبح من الطبيعي ان لا تستمر العلاقة الزوجية بين الالهين «انكي» و «ننخرساگ» بعد ان آتت ثمارها ، فانفصمت عرىٰ زواج هذين الالهين ، بالطريقة التي سبق وصفها ، دون ان يترك انفصالهما اثراً يذكر على الطبيعة وقدراتها ، واستمر كل منهما يؤدي واجباته دون الأخلال بقدرات الآخر وواجباته ، وان كان يحدث بين ذانيك الالهين بعض الخلاف والتنافس احياناً ، ولكن ذلك لم يؤد الى نتائج مهمة تذكر . ان هذا الانفصال في اداء المسؤوليات بين الالهة الأم من جهة واله الخصوبة والآلهة المساعدة له من جهة اخرى . اقتضى ان يدخل العنصر الأنثوي بأي شكل كان في التشكيل الالهي المساعد لأله الخصوبة «انكي» ، فهو العنصر الذي لا يمكن ان يتم انتاج الطبيعة دون مساهمته ، وهكذا تم تمثيل هذا العنصر بالالهتين «أشنان» و «لخار» لتتكامل عناصر الانتاج في الوهية الخصوبة ؟

ثالثاً :

والملاحظة الأخيرة التي يمكن ادراجها هنا بخصوص التخطيط الذي وضعناه استناداً الى ما ورد في النصوص المسمارية عن الآلهة وادوارها ، تتمثل في ان تشكيل آلهة الخصوبة قد اتخذ شكلاً هرمياً يأتي الاله «انكي» في ذروته بوحي من الاله الرئيس «انليل» ثم تأتي القوىٰ الاربع الرئيسة في ذلك بتشكيل على مستوى افقي واحد ويجسدها كل من الآلهة : انبيلولو ، اشنان ، لخار ، ويشكر ، وهناك اسفل هذا المستوى الاله «سموگان» الذي يجمع بعضاً من مسؤوليات كل من الالهتين «اشنان» و «لخار» ولكن قدراته تقتصر على الجبال فقط ، وعند قاعدة هذا التشكيل الهرمي يأتي الالهين المختصين بالأجراءات الثانوية فقط وهما «انكيدو» و «دموزي» ، فالاول منهما يعمل في الحقل مستثمراً الفعالية التي تتيحها الالهة «أشنان» له ، والثاني (اي «دموزي») يعمل وفق ما تتيحه الالهة «لخار» من قابلية انتاجية في القطعان ؟

والآن بعد ان تحدثنا عن موضوع الوهية الخصوبة وحددنا الهها بشخصية الاله «انكي» ووضحنا دور الآلهة التي تتبعه وتساعده في ادارة شؤونها وانتهينا الى تحديد المكانة الحقيقية للاله «دموزي» بين آلهة الخصوبة ووضحنا ثانويتها واثبتنا عدم صحة الرأي القائل بأنه كان اله الخصوبة في عقائد سكان العراق القدماء ، لابد لنا من ان نلقي الضوء على كل دورة في تلك العقائد ونورد ما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه من آراء بشأنه .

دور الاله «دموزي» (تموز) في عقائد سكان العراق القدماء :

ان ما ذكرناه عن الدور المحدد للالهين «انكيمدو» و «دموزي» يتفق مع ما ورد في بعض النصوص ولا سيما تلك التي يتعلق موضوعها بخطوبة الالهة «انانا» وزواجها من الاله «دموزي»[٢٥] . وتنافس هذين الآلهين على طلب يدها ، وخلاصة اوجه هذا الاتفاق يمكن اجمالها في النقطتين الآتيتين :

١ ـ ان مكانة الالهين «انكيمدو» و «دموزي» على درجة واحدة فعلاً بغض النظر عن موقع هذه الدرجة بالنسبة لباقي الآلهة ، والدليل على ذلك يتأتىٰ من ملاحظتين ، الاولىٰ تبدو في تردد «انانا» في قبول اي منهما حين تقدما يطلبان يدها ، اذ انها اختارت «انكيمدو» في بادىء الأمر الا انها قبلت في آخر الأمر بـ «دموزي» والملاحظة الثانية تتجلىٰ واضحة حين يعدد «دموزي» كل ما يمكن لاحدهما تقديمه ، فكل شيء يستطيع احدهما ان يوفره بأمكان الثاني ان يوفر ما يقابله او كما يشير هو نفسه بان الطحين الاسود والطحين الابيض والجعة بانواعها المختلفة وبعض الخضر والخبز الجيد التي يمكن لـ «انكيمدو» ان يقدمها يستطيع هو ان يقابلها بالنعجة السوداء والنعجة البيضاء والحليب باصنافه المختلفة والجبن المتنوع الاصناف ، وهكذا يبدو واضحاً ان قدرتيهما وبالتالي دوريهما على درجة واحدة كما وضحنا في حينه ؟

٢ ـ ان تباري هذين الالهين في التباهي حين تنافسهما على خطوبة «انانا» بقدرتيهما اللتين تتحددان بما يمكن للحقل والحظيرة ان ينتجانه ، بتأثير القوىٰ الالهية المسؤولة عنهما بالطبع ، واقتصار تباريهما في هذا المجال فقط يؤيد ما ذهبنا اليه من تقدير لمكانتيهما وتحديد لعلاقتيهما مع باقي الآلهة المسؤولة عن الخصوبة الطبيعية ، اذ لم يستطع اي منهما ان يذهب في تنافسه مع الآخر الى ابعد من التباهي والتشاجر ، دون ان يكون لذلك اي اثر في الطبيعة كما

يتضح من النصوص الخاصة بالموضوع .

والآن لنأت على تحديد دور الاله «دموزي» في مجمل عقائد سكان العراق القدماء . ان بأمكاننا تقسيم النصوص المسمارية الخاصة بهذا الاله حسب مواضيعها الى ثلاث مجموعات يعرض فيها «دموزي» بثلاثة مظاهر ، هي :

١ ـ الاله ـ الراعي .

٢ ـ حبيب الالهة «انانّا» وخطيبها وزوجها فيما بعد .

٣ ـ اله من آلهة العالم الأسفل (عالم الأموات) .

لقد تحدثنا آنفاً عن المظهر الأول ولم يبق لدينا شيء نضيفه سوىٰ الأشارة الى ما عرف به الاله «دموزي» من القاب تؤيد كونه الهاً ـ راعياً ، ومنها «الراعي» fe'u ، «راعي الارض» fe'u sha irsiti و «سيد مأوىٰ الراعي» shubat feu اما بالنسبة للمظهرين الآخرين فقد جعلنا كلا منهما مدار مدار بحثنا في الموضوعين التاليين .

«دموزي» حبيب الالهة «انانا» وزوجها :

كان الاله «دموزي» يمثل الفتىٰ الراعي الشاب ، الذي وقع في غرام الالهة «انانّا» وفق الفكر السومري ، ولدينا في الوقت الحاضر اربع قصص عن زواج الاله «دموزي» من «انانّا» نستمد معلوماتنا عنها جميعاً من النصوص السومرية ، وهذه القصص وان اختلفت في تفاصيلها الا انها تتفق في الموضوع الرئيس لها وهو زواج الالهين من بعضهما ، ونعرض هذه القصص بصورة مختصرة كما يأتي :

١ ـ القصة الأولىٰ : وتتكون من مقطعين يصف الاول منها اول لقاء للالهين ونشوء الحب بينهما ، ولكن «انانّا» تبدي خوفها من احتمال انفضاح امر هذا الحب ومعرفة امها «ننكال» ningal به ، فيهيأ لها «دموزي» عذراً لتخدع به امها وذلك بان تخبرها بانها قضت الوقت مع صديقتها في ميدان المدينة الرئيس ، فتوافقه على ذلك ويمكثان معاً يتعاطيان الغرام في ضوء القمر ، اما المقطع الثاني فتظهر فيه فرحة الالهة «انانّا» الكبيرة بعد ان اسر لها «دموزي» بعزمه على الكلام مع امها حول مسألة خطوبتها على ما يفترض ، وتختتم القصيدة بعبارات اعجاب توجهها «انانّا» الى زوجها المقبل[٣٦] .

٢ ـ اما القصة الثانية عن زواج الالهين «دموزي» و «انانا» فترد في قصيدة سومرية ، ولعلها تتعلق بفترة خطوبتها اذ نفهم منها بأن «دموزي» كان بأمكانه لقاء «انانّا» في بيتها وبموافقة امها التي حرصت على ان تترك ابنتها اثراً طيباً في نفس خطيبها ، فكان ان نصحتها بالتزين والظهور بمظهر لائق امام «دموزي» الذي ما ان طرق الباب حتىٰ فتحته «انانّا» له وتعانقا بغبطة[٣٨] .

٣ ـ وفي قصيدة سومرية أخرىٰ نجد ما يشير الى حرص «انانّا» على اخذ موافقة ابيها على علاقتها بـ «دموزي» وتبعث له برسول ليفاتحه بهذا الشأن قبل ان تخلي بحبيبها في معبد «اي ـ آنا» في الوركاء ، وتظهر الآلهة هنا وهي في شوق عارم للاحتفاء بـ «دموزي»[٣٩] .

٤ ـ وأخيراً نشير الى قصيدة سومرية سبق الحديث عنها ويدور موضوعها حول التنافس على طلب يد الالهة «انانّا» بين الاله الفلاح «انكيمدو» والاله ـ الراعي «دموزي» ، وقد كانت «انانّا» في بادىء الأمر تفضل الاول بالرغم من الجهود التي بذلها معها اخوها الاله ـ الشمس «اوتو» الذي تدخل لصالح «دموزي» ، وبعد لأي غيرت موقفها وقبلت بالزواج من «دموزي» وتروي هذه القصيدة انه كادت ان تحدث معركة بين كل من «دموزي» و «انكيمدو» لولا الموقف المرن الذي اتخذه الأخير حتىٰ تمكن من تهدئة «دموزي»[٤٠] بعد ان طمئنه بأنسحابه النهائي من التطلع الى الزواج من «أنانّا» .

والان لنتساءل : ما هو المغزى من زواج الالهين «انانّا» و «دموزي» ؟ ان طريقنا للاجابة على هذا التساؤل يمر بتفسيرنا للسبب الذي جعل منظري الفكر والديانة السومريين يختارون الاله ـ الراعي «دموزي» ليكون زوجاً لالهة الحب والعلاقات الجنسية «انانّا» وبالطبع فنحن لا نعول على التبرير الاسطوري لهذا الزواج كما ورد في القصة الرابعة من القصص التي ذكرناها عن زواج ذينك الألهين ، حيث تشير تلك القصة الى ان زواجهما قد تم بتدخل الاله ـ الشمس «اوتو» Utu اخ الالهة «انانّا» ، ولكننا سنحاول تفسير ذلك الزواج على ضوء ما يجسده كل من الالهين «دموزي» و «انانّا» بالخطوات الآتية :

اولاً :

ان «انانّا» باعتبارها الهة الحب والعلاقات الجنسية ، كان لابد لها ان تقع في الحب الذي يجب ان لا يكون اقل من حب صادق مؤداه الزواج ، وحينها يكون هذا الزواج المنفذ

الوحيد لها كأنثىٰ لأشباع رغباتها الجنسية وشهواتها دون الخروج عن القيم التي عرفها مجتمع حضارة وادي الرافدين القديمة ، وبصفتها الهة للعلاقات الجنسية كان من اللازم ضمان استمرار تلبية حاجاتها الجنسية بزوج له القدرة على ذلك .

ثانياً :

في اي حضارة يمثل الراعي انموذجاً للرجل الذي انسحب من تعقيد الحياة المدنية وما تسببه متطلباتها اليومية من اشغال واستنزاف لحيوية الفرد ، فاذا اضفنا لذلك نمط حياته في احضان الطبيعة لا يشغله هم المدينة ولا تثيره مطاريحها وكذلك طبيعة غذائه المنتج من قطعانه ، وهو غذاء يحتوي على سعرات حرارية عالية تؤدي الى خزن طاقة فائقة في بدنه لا تحتاج معرفتها الى تقدم كبير في العلم ، اذ عرفته المجتمعات القديمة عن طريق الملاحظة المباشرة ، ولا نحتاج لأن ندلل على ذلك بأمثلة من بلاد الاغريق واساطير حضارتهم القديمة مثلا ، ونحن ننتهي من كل هذا الى القول بأن الراعي كان تجسيداً للفحولة النقية التي تخزن الحيوية النشيطة والطاقة الجسدية المتفجرة ، ولو اننا وضعنا كل هذه البديهيات امامنا وفكرنا بما تحتاج اليه «انانّا» الهة الحب والعلاقات الجنسية من ... فائقة على تلبية رغباتها الجنسية من قبل ا زوج الذي ...ن به - كما وضحنا في الفقرة السابقة - ، لوجد انه من الطبيعي ان يقع اختيار السومريين على الاله - الراعي «دموزي» ليكون زوجاً لها ، وهو الذي كانوا ينظرون اليه على انه الفتىٰ القوي والثور الوحشي (وينبغي ان نؤكد منا ثانية على ما قصد بهذا اللقب من معاني القوة والحيوية كما ذهبنا في تفسيره آنفاً) ، وهكذا اصبح الدور المقدس للاله - الراعي «دموزي» هو ان يكون الزوج الذي يلبي الرغبات الجنسية لألهة الجنس «انانّا» ، ولا شيء غير ذلك وراء زواجه منها ، وهذا امر لم يدع اكثر منه حتىٰ الاله «دموزي» نفسه حين لم يجد ما يقوله للحكيمة «بيليلي» Belili ، اثناء لجوئه اليها عند هروبه من شياطين الـ «كَالا» التي تطارده ، سوىٰ بأنه زوج الهة في تعريفه بنفسه لها وذلك في الرواية السومرية لاسطورة «نزول انانا الى العالم الاسفل»[٣١]. وبالفعل لم تكن له في الديانة السومرية من اهمية تذكر اكبر من تلك حتىٰ ذلك الحين الذي تتحدث عن الاسطورة فهو لم يكن قبل زواجه من «انانّا» اكثر من اله - راعي لا خطورة له كما يتضح من مخاطبتها له اثناء احدىٰ المشادات بينهما ، اذ انها تعلن بانه لم يكن له شأن قبل الزواج منها ، وقد وردت هذه المشادة في قصيدة سومرية نشرت في السنوات الاخيرة . وفيها تتفاخر «انانّا» بنسبها الرفيع وتنتقص من مكانة «دموزي» بسبب عدم انحداره من نسل يضاهي النسل الذي انحدرت منه ، وتبين سموها عليه بقولها بأنه لولا امها الآلهة «ننگال» Ningal واختها «سيدة القصب المقدسة» وابوها الاله - القمر «سين» لظل هو (اي «دموزي») متشرداً في الدروب والسهول لا يمتلك حتىٰ غطاءاً على رأسه[٣٢] .

ومن الادلة الأخرى التي تؤيد ارتباط مكانة «دموزي» بزواجه نذكر القول المأثور عن الالهة «انانّا» بخصوصه ، اذ ورد على لسانها :

((اجلت نظري بين كل الناس ،
فاسميت ((دموزي)) لألوهية البلاد ،
((دموزي)) ، محبوب ((انليل)) ،
امي تعزه
ابي يعليه ..))[٣٣]

والمغزى الذي نعتقد بأن الالهة «انانّا» قد قصدته من كلامها هذا ، يتمثل في ما ذهبنا اليه من ان «دموزي» لم يكن له شأن خطير ومتميز حتىٰ قبلته هي زوجاً لها ، وبهذا نختلف مع تفسير الاستاذ «كريمر» لمغزىٰ هذا القول باعتباره اشارة الى ان «دموزي» كان بشراً بالاصل حتىٰ زواجه من «انانّا»[٣٤] ، وعلى العموم فنحن لا نظن ان الالهة «انانّا» كانت مبالغة بارجاعها سبب المكانة التي كانت لـ «دموزي» الى زواجها منه ، ودليلنا على هذا هو انه لم يكن في العراق القديم اي معبد مخصص له سوىٰ معابد زوجته التي اصبح يشاركها فيها[٣٥] بعد زواجه منها بالطبع .

واما في النصوص الكتابية فقد وردت اشارة واحدة فقط عن بناية معبد مخصص له في «اور» وذلك في نص يعود الى «ريم - سين» احد ملوك سلالة اور الثالثة الا ان هذه الاشارة تمثل استثناءا اقدم عليه هذا الحاكم كما يرىٰ الاستاذ «هنري فرانكفورت»[٣٦] وذلك بدافع سياسي على ما نظن .

ثالثاً :

بعد ان وضحنا في الفقرة الاولىٰ ان تلبية رغبات الالهة «انانّا» الجنسية كانت تستلزم زوجاً ذا مقدرة جسدية تفصح

عن طاقة فائقة وبعد ان بينا في الفقرة الثانية بأنه لم يكن اصلح لذلك من الاله ـ الراعي «دموزي» الذي تزوجها فعلاً واستمد مكانة مهمة له من هذا الزواج ، نأتي في هذه الفقرة على شرح مصير هذا الزواج .

من الطبيعي ان لا يستطيع الاله «دموزي» الاستمرار طويلاً في الاحتفاظ بقدرته على اشباع الشهوات الجنسية المتزايدة لزوجته ، فما كان يخفى على سكان العراق القدماء ان الطاقة الجنسية ليست دائمة ، وما كان من الغريب ان يجد «دموزي» نفسه على غير قدرة تمكنه من مواصلة تلبية رغبات زوجته بالحيوية لتي ترغبها ، وهي الالهة الشبقية الشهوانية . وعند هذا الحد بدأ حبها لزوجها بالتلاشي وبدأت تحنق عليه وتشعر بالازدراء نحوه ، بالطريقة التي وضحتها الاسطورة المشار اليها في الفقرة السابقة ، وتكمن وراء كل ذلك مشاعر مضطربة من خيبة الأمل وهيجان الشهوات التي لا تجد متنفساً لها والمانع الشرعي ـ المتمثل بزوجها «دموزي» ـ موجود ، والى هذه المرحلة من زواجها نرجع نزولها الى العالم الاسفل الذي ترويه الاسطورة السومرية «نزول انانا الى العالم الاسفل» لتنفس عما يغتلي بذهنها من افكار بالانشغال بالسيطرة على ذلك العالم ، ولكنها حين استطاعت الخروج منه ـ بالطريقة التي توضحها الاسطورة ـ رأت ان في خروج شياطين العالم الاسفل معها ليأخذوا البديل عنها خير وسيلة للتخلص من «دموزي» وبذلك يخلو لها الجو لتعشق من تشاء وتمارس الجنس مع من تشاء ، والمبرر لها انها الارملة التي لا تخشى فقد شيء ، والتي تحتاج الى تلبية رغباتها الجنسية بأية طريقة كانت لأن ذلك جزء من واجباتها الالهية باعتبارها الهة للعلاقات الجنسية ، واستمرت «انانا» بهذه الصورة حتى الفترات المتأخرة من الحضارة العراقية القديمة ، واوضح دليل عليها ما ورد على لسان «گلگامش» في الملحمة حيث انه وصفها وصفاً قاسياً وعدد عشاقها الذين ما ان تشبع رغباتها من احدهم حتى تكون قد تحولت الى آخر . فلما جاء اليوم الذي اثار فيه «گلگامش» شهواتها حتى عرضت عليه الوصال ولكنه ردها بهذا الرد القاسي .

وخلاصة القول ان زواج الالهين «دموزي» و «انانا» كان مقدراً له مسبقاً ان لا يدوم لأن الاسس التي بني عليها لا يمكن ان تكون مقبولة على الدوام ، وبالطبع لم يكن متوقعاً لانهيار هذا الزواج وافتراق الالهين ان يكون ذا اثر خطير في الطبيعة نتيجة للدور المحدد الذي وصفناه للاله «دموزي» في الطبيعة ، اما بالنسبة للالهة «انانا» فانها كانت قادرة على ممارسة مسؤولياتها طالما كان بامكانها اشباع رغباتها الجنسية وهي متمتعة بالحيوية ، ولم يكن يحدث اختلال في ادائها لواجباتها بدرجة تؤثر في الطبيعة (اي على العلاقات الجنسية كما وضحنا سابقاً) الا حين اختفائها واسرها في العالم الاسفل كما يتضح من الرواية الآشورية لنزولها الى ذلك العالم .

والآن بعد ان تكلمنا عن المظهرين الاول والثاني للاله «دموزي» ، ووضحنا انه كان في البدء الهاً ـ راعياً ثم اصبح زوجاً للالهة «انانا» ، نأتي على شرح المظهر الثالث .

«دموزي» احد آلهة العالم الاسفل :

لقد وضحنا في ما سبق ان الاله «دموزي» بمظهريه الاولين لم يكن متميزاً بمكانة خاصة به ، فهو باعتباره الهاً راعياً لم يكن سوى مشرفاً على الاغنام وحظيرتها التي كانت الهتها الأصلية «لحار» ، ودوره هنا كان ثانوياً بحيث وضعه في مستوى متدن كثيراً عما كان عليه الآلهة الآخرين ، وفي مظهره الثاني باعتباره زوجاً للالهة «انانا» اصبح يستمد مكانته من مكانة زوجته وليس من مركز ذاتي له ، اما في هذا المظهر الذي اصبح فيه احد آلهة العالم الاسفل ، فنستطيع القول انه قد شغل مركزاً رسمياً خاصاً به في العقائد القديمة ، واصبح بذلك مكلفاً بواجب ديني يؤديه في اطار مركزه هذا ، ولذلك فليس من المستغرب على ما نرى ان تنظر الديانة الرسمية الى هذا الواجب على انه الدور الوحيد للاله «دموزي»[٣٧] كما يتضح لنا من التعاويذ الدينية التي كانت تؤلف من قبل الكهنة وخاصة الأشورية منها[٣٨] . في الوقت الذي ظل فيه دوره في المظهرين الآخرين مقتصراً على النصوص الشعرية والاساطير بشكل اوحى للاستاذ «هنري فرانكفورت» بأن عبادته كانت شعبيةً وليست دينية[٣٩] ، ونحن نؤيد هذا الرأي ونتفق معه .

ان بامكاننا ايراد دليلين يثبتان ان الاله «دموزي» كان واحداً من آلهة العالم الاسفل ، وهذان الدليلان هما :

الدليل الأول :

ونستخلصه من القاب الاله «دموزي» نفسه ، حيث انه عرف بجملة القاب تفصح عن دوره باعتباره احد آلهة الموت

في العالم الأسفل ، ومن بين تلك الالقاب[10] نذكر :

١ ـ «سيد ارلي (وهو اسم العالم الأسفل)» (Am-a-ra-li) وبالاكدية «بعل ارلي» (bel aralli) .

٢ ـ «ملك الارض البعيدة (العالم الاسفل)» (Lugal-ki-bad-du) .

٣ ـ «ملك الجبل (العالم الاسفل)»(Lugal-kur-ra) .

٤ ـ «ملك ارض اللاعودة (اي العالم الاسفل ايضاً)»(Lugal-sag-nu-gi4-a) .

الدليل الثاني :

وبامكاننا ان نستمده من محتويات النصوص المسمارية المختلفة المواضيع ، والتي حملت اشارات واضحة عن وجود «دموزي» في العالم الاسفل كواحد من آلهته ، وانه كان يقوم بالواجبات المناطة به اسوة بالآلهة الاخرىٰ في ذلك العالم ، وهذه النصوص هي كما يأتي :

١ ـ النص السومري المعروف بعنوان «موت كلكامش» وقد قام بترجمته في السنوات الأخيرة الاستاذ «كريمر» ويدور موضوعه حول موت «كلكامش» ونزوله الى العالم الاسفل محملاً بالهدايا والقرابين التي قدمها بعد نزوله الى آلهة ذلك العالم الذين ترد اسماؤهم في النص ومن بينهم الاله «دموزي»[11] .

٢ ـ والنص السومري الثاني الذي يؤيد كون «دموزي» احد آلهة العالم الاسفل هو النص المعنون بـ «موت اور ـ نمو» ، ويتضمن قصة موت هذا الملك السومري ونزوله الى العالم الاسفل مصطحباً معه القرابين من الثيران التي نحرها تزلفاً لآلهة ذلص العالم الذين جلب لهم معه هدايا مختلفة تتضمن الاسلحة والحقائب الجلدية والآنية والثياب والحلي والجواهر ، وقدم لكل واحد منهم هديته في قصره الخاص به ، ويذكر النص ان الاله «دموزي» كان من بينهم وانه نال ما يخصه من هدايا «اور ـ نمو»[12] .

٣ ـ تعرف ان سكان العراق القدماء كانوا يطلبون ـ بسبب او بآخر ـ بركات اي اله وعونه حين الحاجة دون ان يستثنوا من ذلك آلهة العالم الاسفل الذين لم يكن وجودهم فيه يؤثر على مقدراتهم على الارض كما نفهم من النصوص الدينية المتعددة والتعاويذ الكثيرة ، كما انه كان بأمكان اي من آلهة العالم الاسفل الصعود الى السماء وحضور اجتماعات الآلهة هناك باستثناء الهته الرئيسة «ايرش ـ كيگال» التي لم تكن ترغب في ترك عالمها بسبب تحملها للمسؤولية الاولى فيه ، وهذا ما نفهمه من الاسطورة الاكدية «نركال وايرش ـ كيگال»[13] . فاذا وضعنا هذه المعلومات امامنا وربطنا ما بينها وبين صيرورة «گلگامش» بعد موته الهاً من آلهة العالم الاسفل كما يتضح من نص «موت اور ـ نمو» المشار اليه في الفقرة السابقة والذي ورد فيه اسم «گلگامش» ضمن قائمة آلهة العالم الاسفل التي يذكرها النص ، اضافة الى ما تثبته محتويات بعض النصوص الاخرى[14] ، فاننا نخرج بنتيجة تمكننا من توقع طلب بركات «گلگامش» وعونه في النصوص الكتابية باعتباره واحداً من آلهة العالم الاسفل ، وهذا ما حصل فعلاً في نص الملك السومري «اوتو ـ حيگال» الذي يعلن فيه ذلك الملك تمتعه برعاية «گلگامش» واسناده له في معركته ضد الگوتيين ويقرن ذكر «گلگامش» في نصه هذا مع الاله «دموزي» اذ انه يشير الى معونتها سوية له في النص[15] ، ونتيجة لكل ما تقدم فقد اصبح من الواضح ان «اوتو ـ حيگال» يريد القول بأنه قد حصل على بركة «دموزي» و «گلگامش» ومساعدتها باعتبارهما من آلهة العالم الاسفل ، وبذلك نكون قد امتلكنا دليلا اخر على ان الاله «دموزي» كان واحداً من آلهة العالم الاسفل .

٤ ـ وهناك دليل آخر يتأتىٰ من الاسطورة الاكدية المعنونة باسم «ادابا» الذي قرر «آنو» استدعائه الى السماء بسبب كسره جناحي الريح الجنوبية ، ولكن الاله «ايا» (انكي) قرر مساعدته لينجيه من عقاب الآله «آنو» على فعلته تلك فأرشده بأن يترك شعره اشعث ويرتدي ثوب الحداد ويدعي انه فعل ذلك حزناً على الهين كانا قد رحلا عن الارض وهما «تموز» و «ننگشزيدا» ـ وكان احد آلهة العالم الاسفل ـ ، وذلك لأن الاله «ايا» كان يعرف بان «ادابا» سوف يلقاهما واقفين يحرسان بوابة الاله «آنو» ، وبالفعل فأنه حين صعد «ادابا» وعرفا منه انه حزين بسبب اختفائهما عن الارض قدما له المساعدة امام الاله «آنو»[16] . والذي يهمنا من هذه الاسطورة هنا هو ان الاله «تموز» قد اعتبر من قبل الاكديين الهاً من آلهة العالم الاسفل ، ويكلف بواجبات خاصة ضمن دوره ذاك برفقة اي اله آخر من آلهة ذلك العالم كما تفصح اسطورة

«آدابا» . ان الملاحظة المهمة التي نشير اليها بخصوص هذه الاسطورة هي انها توضح ان تمتع الاله «تموز» بقدرات خاصة بآلهة العالم الاسفل واداءه للواجبات التي كان يكلف بها وهو بهذا الدور لم يكن ليغير شيئاً من نظرة سكان الارض عن كونه اله راحل يتوجب الحزن عليه ، وان هذا الحزن والحداد كان يرضيه وانه يمثل عوناً من التقرب اليه لكسب رضاه .

وهكذا نكون قد انتهينا من شرح المظاهر الثلاثة التي عرف بها الاله «دموزي» ولدينا ملاحظة اخيرة تتعلق بتسلسل هذه المظاهر ، فقد ظهرت جميعها في النصوص السومرية ، ويبدو ان السومريين قد اعتبروا «دموزي» احد آلهة العالم الاسفل ، وانهم وضعوا له المظهرين الاول والثاني ليبرروا نزوله الى العالم الاسفل وصيرورته واحداً من آلهته ، واستمر هذا المظهر وهو الثالث حتى مجيء الاكديين الذين ادخلوه كما هو في عقائدهم فاعتبر «تموز» وفقاً لها احد آلهة العالم الاسفل ، ولم يعيروا اهتماماً للمظهرين الاولين في نصوصهم المكتوبة .

والآن فقد وضحنا بصورة وافية ان «دموزي» (تموز) لم يكن اله الخصوبة في العراق القديم ، وان الاله «انكي» هو الذي كان اله الخصوبة الرئيس ، ووضحنا الدور الكامل للاله «تموز» في العقائد العراقية القديمة ؟

الهوامش

1. The Greatness that was Baby on. (London. 1962). p. 37[illegible].
2. Taward the Image of Tammuz and other Essays on Mesopotamian History and Culture. (Harvard University Press, 1970). ed. by William L. Moran. p. 29
3. "Dumuzi's Annual Resurrection. An Important Correction to Inanna's Descent". in BULLETIN OF THE AMERICAN SCHOOL OF ORIENTAL RESEARCH 183 New York. Oct. 1966). p. 31.
4. S. N. Kramer. The Sumerians (Chicago. 1964). p. 17.
5. Ibid., p. 179.
6. Ibid., p. 181.
7. Ibid., p. 312.
8. Ibid., p. 196.

٩ ـ طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٩٤ ، اللوح السادس : ٩٢ ـ ١٠٦ .

10. Cylinder Seal. (Holland. 1965). p. 12[illegible]
11. Ibid., Loc. Cit.
12. Ibid., Pl. XXIIe.
13. Ibid., Pl. XXII f.
14. G. Contenau. Everyday Life in Babylon and Assyria (London. 1964). p. 257.

١٥ ـ ثورة كلدياكيسون ، في : ما قبل الفلسفة (القاهرة ، ١٩٦) ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

١٦ ـ نفس المصدر ص ١٨٥ .

17. S. N. Kramer. The Sumerians. p. 119.
18. Ibid., p. 121.
19. Ibid., p. 122.
20. Ibid., pp. 173-81.
21. K. Tallqvist. "Akkadische Gotterepitheta", in STUDIA ORIENTALIA. VII. (LEipzig. 1938). p. 292.
22. Ibid., p. 450 f.
23. S. N. Kramer. The Sumerians. p. 221.
24. S. N. Kramer. The Sacred Marriage Rite. (London. 1969). p. 154

٢٥ ـ بخصوص تلك النصوص يراجع نفس المصدر السابق :

P. 56 and p. 70 f.

26. K. Tallqvist. Op. Cit., p. 470.
27. S. N. Kramer. 1. The Sumerians. pp. 250-1; and
    2. Sacred Marriage. Rit. p. 77 f
28. Ibid., 1 - p. 252; 2 - p. 76 f.
29. Ibid., 1 - p. 252; 2 - pp. 73-6.
30. Ibid., 1 - p. 252 f.; 2 - pp. 68-71
31. S. N. Kramer. The Sumerians. p. 159.
32. S. N. Kramer. Sacred Marriage Rite. p. 72 f.
33. Ibid., p. 67.
34. Ibid., p. 57
35. H. Frankfort. Kingship and the Gods. (Chicago. 1948). p. 288
36. Ibid., Loc. Cit.
37. H.W. Saggs The Greatness that was Babylon. (London 1962). p. 377.
38. Th. Jacobsen. Taward the Image of Tammuz.... p. 75 f.
39. H. Frankfort. Kingship and the Gods. p. 288.
40. K. Tallqvist. Op. Cit., p. 469 f.
41. S. N. Kramer. in ANET., 3rd ed., (1969). p. 51; B-13.

42. S. N. Kramer. "Death and Nether World According to the Sumerian Literary Texts", in IRAQ, XXII, (London, 1960). p. 60.
43. E. A. Speiser. in ANET., 3rd ed., p. 103 f.

٤٤ ـ بخصوص ذلك راجع :

N. K. Sandars, The Epic of Gilgamesh, (London, 1972), p. 21.
45. S. N. Kramer, The Sumerians, p. 325.
46. E.A.Speiser, in ANET., p. 102; B-14-45.

* ـ الجزء ١ ـ ٢ المجلد ٣٤ لسنة ١٩٧٨ ص ٢٢ ـ ٣٩